تخلف النحت

بقلم محيي الدين محمد *

منذ آلاف السنين ومهمة النحت ان يخلد شكلية محاربين كافحوا حتى الموت . فهو تذكرة ، اشارة لموقف ، وهو يستطيع ان يكون ذئباً١ يرمز لامة، او ثوراً٢ مجنحاً يرمز لدين .. او كاتباً٣ متأهباً رمزاً لثقافة ..

ولكنه سيبقى في كل تلك المواقف : اشارة أو حلماً او وعيداً٤ ... وسيظل التمثال عاطلا .. مشنوقاً .. هامداً .. يحكي عن البطولة فعلاً ، ولكنها خلال الزمن قد فقدت اهميتها : فما قيمة محارب روماني وسخه البرونز حتى مفرق شعره ؟ ما قيمته العسكرية امام المدكات الحديثة للمدن والاقطار ؟. ما قيمته وهو واقف عريان إلا من صليبه .؟ وهو يتحدى بوقاحة تامة عدواً قد يهبط له من الكواكب : اذ ما من عدو يبدو في الابعاد كلها !!

على انه يبرز الزيف هنا : فان النحات قد خلد في البطل موقفاً بعينه؛ صيره متحفزاً خلال الزمن كله .. فحتى اذا لاطفته نظرة وضاءة .. فلن يتخلى عن تجهمه البشع ، لقد دُمغ بالوحشية .. فما من طريقة لتهجينه !! ان النحت يعطينا دقيقة انفعال .. ثم يظل يدق برتابة عنيدة .. في كل لحظة .. مذكراً بتلك الدقيقة الهينة ..

وها هو واحد آخره من الابطال القدامى فوق قاعدته المنسحبة لاعلى : يسحقه اتفه طفل وهو صامد متمسك باستعلائه ، آمن لزلاقة القاعدة، وهو قد كافح الزمن ، خلال الامطار والاتربة والانواء ، وخلال المضايقات المستمرة للصقور والحمام التي تسمد وجهه الرائع بزبلها الوسخ .. — كافح الوقت والرتابة كي يصمد كما كان : بطلاً ..

ولكنه خلال كل النظرات المعجبة التي يلصقها بوجهه البشر .. يتمنى في انسحاق لحظة من الحياة ان يشم هذه الزهور الموزعة بعناية اسفل قاعدته .. ان يقف على ذلك الجسر الممتد ويحدق في المياه السمراء .. لقد قضي عليه ان يتوحد ها هنا .. كتلك النافورة المقامة في قلب الحديقة ..

لقد منحوه كل شيء : الوسامة .. والشموخ والرفاهة .. ولكنهم استلوا منه الحياة ... فما قيمة كل هذا إذن ؟ ما قيمته ؟؟

ان الجهد الذي يبذله النحت لاستخلاص العمق جهد ضائع . ان الفنان يقيم كتلة في الفضاء ، ميتة ، بمحاولته وضع بديل الانسان : يصدع الحياة في الاثناء التي يعيد فيها بناء الكتلة . إن النحت لا يحتمل الموضوعية خلال تكتيله التشكيلي لليونة .. ثم .. ما هي ميزة التكتيل التي تتوفر في النحت كفن ؟

إنها تجعلنا نلمس مدى استدارة كتف او بروز صدر .. ولكنها لا تعطينا ذرة من الحياة. إنها تمنحنا الارتفاع والعرض والعمق وتبعدنا عن الموضوعية .. فكأن التكتيل يؤدي لاسقاطه.

إن كل هذه التماثيل القائمة في المتاحف قد صعقتهم سطحية النحت ، خلال عنايته المتواصلة بصقل الارداف والبطون ، فكأنهم فرسان مدينة ميتة .. لا شيء في اعينهم الباهتة سوى البلاهة والفراغ .. إن التمثال يذكرنا بموقف ما .. ولكنه يعجز عن منحنا الحدث. إنه يوقف لك لحظة من لحظات التاريخ المستمر كي تقتنصها ولكنك تشعر بالتيه فور اهتمامك بالموقف.

إن النحت كالرمز يبدهنا بالاشارة وعلينا أن نستدل بالاثر.. وهناك ملاحظة تسترعي انتباهنا : إن النحت يبالغ في إظهار العري بمراحله كلها؛ فكأنه يستدعي — باستمالته الذليلة — استحسان المتذوق لمواضع الغواية عند نساء تزهلت لحومهن اللدنة .. إن العري ظاهرة تلابس النحت باستمرار. إن الفنان يؤكد النعومة الهينة للجسم البشري خلال الصخرية الجافة للرخام أو الحجر.. خلال التماسك الشديد للنتوءات المتجمدة، يحاول بعنف اجتذاب صفة من الانموذج يلصقها بالجماد الماثل : فهو تارة يضيف ارتعاشة جفن ، او ارتخاء عضلة ، وهو بهذه الاضافات المستمرة إنما يؤكد بُعد الاثر عن الحقيقة، إنه يؤكد خلال هذا التصنيع المزيف بشرية الصوان ! ويخفق بالوقت نفسه في إضافة صفة الحياة البارزة للبشر.

وهو أثناء بحثه الدائب عن العمق، يشكل جسوماً وأبعاداً ، ولكنه لا يتطرق للموضوع، وهو يحسب انه يشكل ما تعجز عن منحه له كل قواعد النحت.

نادراً ما ينحت الفنان جسماً بغير معونة من أنموذج، وهو لا يستطيع أن يتذكر الانسان كشكل — كما يفعل التصوير — ولا يمكنه تصور الانسان كموضوع — وهو جهد

تمثال داوود — لميكالانجلو

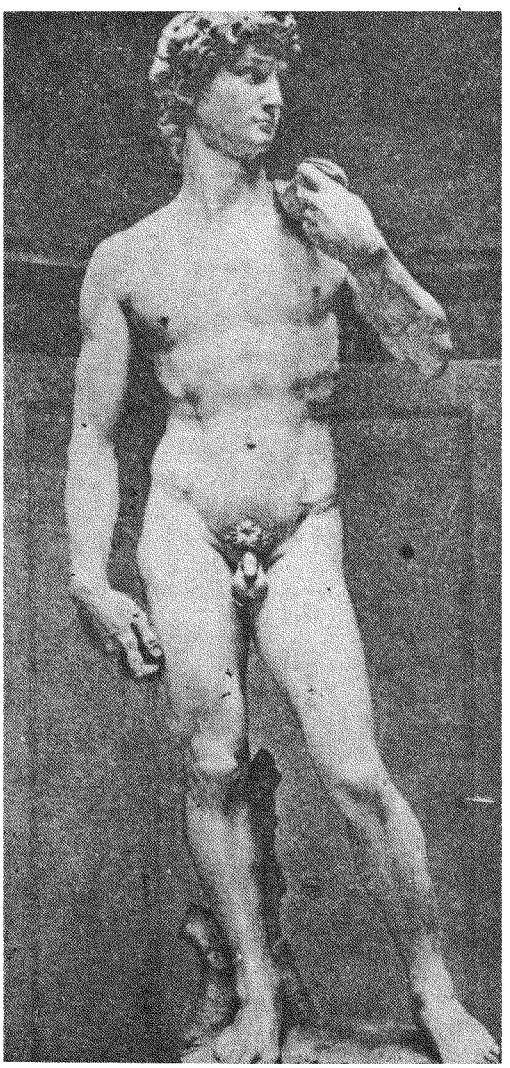

١ رومه . ٢ نينوى .
٣ الجيزة . ٤ جواد طروادة .
٥ تمثال « سعد زغلول » .

بيانا – لاجريكو

الادب – ان النحت يكتل الماثل ، لا يضيف موضوعاً الا في النادر . ان الابعاد الثلاثة في الانموذج تنتقل ببطء خلال الضربات الثابتة للازميل الى تعرجات عميقة في الصخر ، وتأخذ مكانها حسب الوضع الذي اتخذه الانموذج : فهاهو نفس التصميم المدهش الذي يكسو به الانموذج وجهه ، قد انتقل بسحر الى الحجر !

ان الناحت يجتذب لداخل منحته موضوعاً يحدث بالخارج فكأنه يخدع الناظر للاثر ، خلال التبديل الهائل الذي اجراه للطبيعة ، فهو زيف المكان والموضوع ..

وعلى هذا فنحن لا نتصور (داوود)[1] الرائع إلا انموذجاً لرياضي من ابناء (رومة) ويظهر هذا المثل واضحاً عند « El Greco » في لوحتيه « Pieta » و « Virgin With Saints » .. فهو قد رسم السيدة العذراء والمسيح والملائكة بملامح اسبانية من « توليدو »[2] رأساً . وذلك هو عيب الانموذج : ان يفرض ذاتيته بعمق للاثر كله ، وجهه وكتلته ، ومن خلال الوجه تتضح النفسية ذاتها .. فهذا ليس المسيح[3] ، وهذه التي تحمله على ركبتيها ليست السيدة مريم .. إنما أنموذجان (رومانيان) . وهذه الاطراقة التي يختارها الفنان إنما هي تعبير لنفسيته هو .. إنما يؤكد ما يحدث في مخيلته ولكنه لا يكتل ما حدث فعلاً ..

ميكايل انجلو . ٢ مدينة بأسبانيا وهي بلد المصور ..

٣ تمثال لميكايل أنجلو .

انما يظهر زيف النحت حين يشكل للأثر زماناً ومكاناً غير زمان الموضوع ومكانه .. وهو ليس كالرواية مثلاً : اذ تفرض زمنها المعين على القاريء . ان النحت ليس تصوراً ، انه ظاهراتي محض ..

انني لا اكتل الفلاح إلا إذا جذبته إلى منحتي .. وهو يبعد عني للسبب نفسه !! فحين اضمه بالمنحت يفقد ذاتيته .. إنه فلاح لانه في المنطلق غير المحدود للارض الطينية والاعشاب والمزروعات .. ولكنه في الكتلة أمامي يستحيل شيخاً للبلد ، متوقفاً أعمى – حتى خلال الانحناءة التي اهبها له وهو يفلح .. وما الذي يفلحه ..؟ لا شيء !! اذ تختفي الارض في القاعدة الضيقة الممنوحة له بسخاء !! زيف ما اهبه له ، هو وجاموسته الميتة ، من اختلاجات احاول عبثاً ان احكي بها واقع الفلاح الماثل امامي . وأنا حين أسوي بين الانفصالات المتعددة ، وحين امسح بهوادة أثر الازميل الخشن وحين اضع للاطراف استداراتها الرائعة ، فلست اؤكد سوى طواعية الحجر وليونته .. ولكنه عبث ما نفعل : ففي هذه الاثناء التي احاول فيها وضع انسانية للحجر ، يرتد الانموذج نفسه فيصبح حجراً .

ان جهد الناحت هو تكتيل الجسد العاري في الصخر ، ان يبرز المطاطية الناعمة لنهد او الدعارة الفاجرة لفخذ .. وهو يحتمي بستار الجمال اذ يجتذب الى كتلته – بكل عناية – مواضع الحسن من الانموذج الماثل .. ان النحت يتخلف عن الفنون الاخرى اذ يتمسك بوجود الانموذج : يبدل زمان الموضوع وشكله ليستطيع منح الوجود للاثر – ومن خلال تبديله يبرز الزيف . والكتلة تقام في الفضاء : ترتفع امامنا علاقة فوق قاعدتها الصخرية ناعمة يتفجر منها الدم ، غير انه يستحيل علينا سماع النشيج ، او ابداء الاسى كمشاركة في الانفعال – وهو الوهم الذي يجب على الفن ان يعطيه للمتذوق .

ان التصوير الفوتوغرافي يموت كفن لانه لا يعطينا الوهم . انه يمنحنا جلال الواقع الحادث ، يجعل لنا المربع المضاء المحدد بمساحة العين الزجاجية ثم يوصدها بالاطار ، وهي نفس المهمة التي يحملها رسامو المناظر الطبيعية على عواتقهم : وضع شجرة ما امام تل او كوخ .. ثم احاطتهما بالاطار ، وهو بناء من اهم ابنية التصوير القديم والمعاصر ...

لا يهم الاثر ان يكون مشكلا بتفوق نسبي في المظاهر العضلية او التكوين الجسماني . فلسنا نبحث عن امكان استبدال انسان اللحم بانسان الصخر ، ولسنا نرغب في دمغ الجسم البشري بتصوراتنا عن قيمة الحسن ومقدار الرفاهة .. انما يشكل الفن الاثارة – خلال الوهم – لا يمنح اللذة ولا يقيم البديل ... ان الجهد الحالي للنحت جهد فاشل ، وذلك سبب انحراف النحاتين الى اقامة تشكيلات فراغية .. فهي تتكالف العمق خلال اعمدة تقام ومخروطات تسقط : ولا وجوه هناك .. فالمشاعر التي كانت فردية اصبحت تحس بها الجماعة فما من داع لتصوير زعقة بشرية او انحراف حاجبين للدلالة على عنف الالم ، . فلا اكثر من الوشاية يهمس بها الفنان الى المتذوق حتى يدرك عنه ..

يسقط الظل ، وترتفع اعمدة من الضياء . وتنسكب كالحديد المنصهر في خزانات عالية[2] . ولا جسوم للضحايا !! لاننا نحن هم الضحايا .. وتنسحب خلفنا كل الشعوب والامم الممثلة للبشر ..

اننا نهدم الموضوع اذ نحدده بالذاتية الخاصة للانموذج .. خلال الصفات الملازمة لجسمه ووضعه فالعرض الشكلي يزول ، وحسبنا ان ندبر الموضوعية في الكتلة .. حتى نقرر للنحت ميدانا يخوض فيه ...

القاهرة

محيي الدين محمد

١ تمثال ريفي جامد من الخشب عن آثار المصريين القدماء .

٢ Guernica بيكاسو .